هل عرف العرب البلهارزية

١ً : توطئة

ليس كاتب هذه الكلمة طبيباً ، انما درس الطب في شبابهِ مدة سنتين ، ثم عدل عنه الى تحصيل الفلسفة وعلم اللاهوت في مونپليه *Montpellier* ، في فرنسة للترهب فأكبَّ عليهما سبع سنوات ، ثم ترهب .

فما تقرأ هنا ، لا يعتمد عليه الاّ من باب الاطلاع والفضول والوقوف على ما يكتب ، لا من باب العلم الذي لا يرتاب في حقيقته ، ولا من باب التأكيد الذي لا ريب فيه .

ان البلهارزية لم تخلق في هذا العصر ، ولا قبل عصور عدة ، انما وُجدت مع وجود العالم ، وهي « دودة مستطيلة : الى البياض ماهي ، طولها ثلاثة خطوط ، واغلب ما تكون في الاوردة الصغيرة ، في الغشاء المخاطي المبطن للمسالك البولية ، وتسبب البول الدموي في اهالي ديار النيل » (عن لترَهْ في معجمه الطبي)

وبلهارزية ، كلمة منسوبة الى الطبيب الالماني الذي اكتشفها في مصر واسمهُ *Bilharz* فالعرب كانوا في وادي النيل وعاشوا فيه ، وابناؤهم لا يزالون في تلك الديار ، وهم يصابون بالبول الدموي الى عهدنا هذا ، فلا بد من ان اجدادهم عرفوا هذا الداء والدودة التي تسببهُ ، فما كانوا يسمونها ؟

٢ً : البلهارزية هي قملة النسر .

قرأت في القانون لابن سينا ما هذا نصه الذي انقله بحروفه عن نسختي الخطية (ظهر ص ٧٢٣ وتقع في المجلد ٢ : ١٤٨ من طبعة رومة) :

« فصل في قملة النسر المسماة (دَدَه) بالفارسية ، و (صملوكي) باليونانية ، و (طغانوس) بالهندية .

« وهذه هامة كالقملة ، او كأصغر الديدان ، قال جالينوس : هي صغيرة لا يتوقى منها ، وتكاد لا تبصر لسعتها ، وهي مما تفجر الدم بولاً ورعافاً ، ومن المقعدة ، ومن المعدة ، بالقيء ، ومن الصدر والرئة ، ومن اصول الاسنان . وربما عظم الخطب فيها ، فلم تقبل الدواء » انتهى

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان ٥ : ١٢٠ : « وكذلك يقال ان البعوضة لو الحقت بمقدار جرم الجرّارة [١] ، فانها اصغر العقارب . ثم زادت من تضاعيف ما معها من السمّ على حسب ذلك ، لكانت شرًّا من الدويبة ، التي تسمى بالفارسية دده [٢] وهي أصغر من القملة [٣] شيئًا . وتكون بمهرجان قُذَق [٤] ، فانها مع صغر جسمها ، تفسّخ الانسان في اسرع من الاشارة باليد ؛ وهي تعض وتلسع ، وهي من ذوات الافواه ، وهي التي بزعمهم يقال انها قملة استحالت هذه الدابة الخبيثة » انتهى .

٣ : سبب تسميتها بقملة النسر

يظن بعضهم ان قملة النسر سميت بهذا الاسم لأنها تكون فيه ، لا تخرج منهُ ، فتهجم على الناس . هذا في رأي الأقدمين ، وليس من العلماء المحدثين من يرى هذا الرأي ، فهي لا توجد فيه ، وان وُجدت ، فكيف تصل الى الانسان وكيف تهجم عليه ، ولا سيما في المواطن التي لا نسرَ فيها ، ولا أثر لهُ فيها ؟ ثم كيف تصل الى مسالكهِ البولية ؟

والذي عندنا انها سميت بذلك للاشارة الى انها تفتك بالانسان ، فتك النسر بصيده ، او من باب اضافة الحقير الصغير الى الجليل الكبير ، تعظيماً له ولأمره ولفعلهِ . فقد قال الأقدمون منا : أسد الله ، وسيف الله ، وقوس الله ، ورُمح الله ،

(١) الجرّار : ضرب من العقرب صغير خبيث يعرف بهذا الاسم في بغداد ، واحده جرّارَة . وفي الأصل المطبوع الجرادة وهو خطأ .

(٢) وفي الأصل المطبوع ذروة وهو خطأ بين .

(٣) وفي الأصل المطبوع : أكبر من القملة شيئاً ، وهو وهم اخر .

(٤) وفي الأصل المطبوع : بمهرجان فوق ، وهذه كبوة أخرى .

وكلب الله ، الى نظائرها من التعابير ، ونحن نعلم ان ليس لله أسد ولا سيف ولا قوس ولا رمح ولا كلب ، بل كل ذلك من باب التعظيم والاجلال .

٤ : مترادفات قملة النسر

قال ياقوت الحموي في معجم الادباء في ترجمة علي بن منصور الحلبي (طبعة مرجليوث ٥ : ٤٢٧) [١] : « واتفق ان الطبيب المذكور لحقته بعد هذا بأيام شقفة ، وهي التي تسمى التراقي ، ويقال لها قملة النسر أيضاً ، فمات منها ، وكان نصرانياً » اه .

وذكر التراقي ابن الاثير في كامله . قال (في المجلد ١٠ : ٣٧٤ من طبعة الافرنج) : « في هذه السنة (٥١٢) . سادس عشر شهر ربيع الآخر ، توفي المستظهر بالله ، ابو العباس احمد بن المقتدي بامر الله ، وكان مرضه التراقي [٢]

وعندنا ان التراقي من اصل فارسي هو (تراك) كسحاب وكتاب . ومعناها الشق والفلع والفلق وسمي كذلك لأن هذه الدودة تحدث فلعاً دقيقاً في المكان الذي تقيم فيه ، وعربت بقاف في الآخر وزيادة الياء ، كأنهم أرادوا ان يقولوا : ذات الصدع او الصادعة .

على أن لها تأويلاً في اللغة الضادية وهو : ان التراقي جمع ترقية مصدر رقي .

(١) نحن لا نستشهد بطبعة الدكتور احمد فريد رفاعي بك فانها لكثيرة الغلط والتصحيف وأوهام الطبع ، فان هذه الترجمة وقعت في المجلد ١٥ ص ٨٣ وما يليها . فقد جاء مثلاً في الأبيات المذكورة في ص ٨٧ ما هذا نصه : « ان الزمان قد نضر » وفي مرجليوث : قد نصر — وفيها : فقد عدا على التصر . وفي مرجليوث : فقد غدا — وفيها : من غره — وفي مرجليوث : من غرة . ونحن لا ننكر ان لرواية الدكتور أوجهاً أصح من أوجه مرجليوث لكن يحسن به أن يذكر الروايتين ليتبين الفرق بينهما وينتقي القاريء ما يشاء أو ما يستصوبه .

(٢) لاحظ ابن الاثير ان المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله مات بالعلة التي توفي بها والده ، وهذه عبارته : « في هذه السنة (٥٥٥) ثاني ربيع الأول توفي امير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس احمد بن المقتدي بأمر الله رضي الله عنه بعلة التراقي ... ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي ، وماتا جميعاً في ربيع الأول » اه .

ولا شك ان الابن تلقى مرضه من والده ، وإن لم يكن هذا المرض معدياً في حد نفسه . هذا الذي يتبين من الظواهر ، ولعل هناك سبباً آخر يدلنا عليه اطباؤنا المهرة الحذاق .

وسبب تسميتها بذلك انها اذا دخلت الجسم ارتقت فيه شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مسلك البول ، فتجد فيه بيئة صالحة تعيش فيه وتنمو نمواً يزيدها توالداً وتكاثراً ، فهي ذات تراقٍ .

وأما اسمها (الشقفة) فانهُ مشتق من الإِرَمية من فعل (شقفْ) ومعناها الرضة والشدخة والصدعة اي بمعنى اختها (التراقي) ، ان سلمنا انها من الفارسية ، وهو الرأي الاشبه . ويجب ان تضبط (الشقفة) وزان (الغرفة) بخلاف ما ضبطها الدكتور احمد فريد رفاعي بك اذ جاء البيت الآتي مضبوطاً هكذا :

بِشقفةٍ بين مِنكبيهِ رشاؤها في قليب قلبهِ

وهنا غلط آخر وهو ضبط المنكب ، كمنبر والصواب كمنزِل .

وقد شرحنا سبب تسمية هذهِ الدودة بقملة النسر فلا نعود الى ذكره ثانية .

وان قال قائل : ليست قملة النسر بالبلهارزية فنسأله : اذن ماهي ؟

٥ً : دودة اخرى : خرز الطين

وذكر القانون بعد قملة النسر هامة أخرى سماها « خرز الطين » ووصفها هكذا ، فقال :

« فصل في الطبوع وخرز الطين ، وهي دابة كثيرة الأرجل ، حادة السمّ ، هي في أحكام قملة النسر » اه .

قلنا : اذن هي مؤذية اذى قملة النسر ، أفلا يوافق هذا الوصف ما قيل في الهامة التي يسميها العلماء : *Trichodectes* ، فانها كثيرة الأهداب او الارجل وتعيش في المستنقعات ، غريبة الشكل ، تكاد تشبه الخرز في ظاهرها ، وتتشبث بالكلاب فيقال لها *Trichodectes canis* ، وبالمعزى فيقال لها : *T.climax* ، وبالبقر فتدعى *T.scalaris* وبالخرفان فتسمى *T.sphoeroce phalus*

فأنا اطرح هاتين الكلمتين على مائدة النقد والتحقيق والتدقيق في النظر ، لتنجلي الحقيقة الفاصلة في هذا الموضوع الغريب :

ومن العجب ان معاجم اللغة لم تذكر اسماً من الأسماء الثلاثة ، ولا خرز الطين . وقد جاءت هذه الأخيرة مصحفة تصحيفات غريبة في نسخ القانون ، من مطبوعة ومخطوطة ، وانا اذكر هنا ما وقع طائر بصري عليها وهي : خزر الطين ، بتقديم الزاي على الراء . — وخزز الطين ، بزايين . وحرز الطين ، بحاء مهملة وراء وزاي — وجرز الطين ، بجيم وراء وزاي . وعسى ان يقوم من دكاترتنا الممعنين في الطب واللغة ، من يزيل الابهام عن هذهِ الالفاظ فيكسب شكر جميع الناطقين بالضاد .

بغداد : الأب انستاس ماري الكرملي